اللغة العربية بين القديم والحديث

قصيدة الأستاذ على الجارم

المفتش بوزارة المعارف وعضو المجمع اللغوى الملكى (١)

ذِكرياتٌ ردَّد الدهرُ صَداها ... وعهودٌ يحسُد المسكُ شذاها
وَصَل العُرب الغَطاريفُ إلى ... غايةٍ لا تبلغ الطيرُ ذُراها
وجرَوْا صَوْب العلا فى طَلَق ... زاحم الأنجمَ واجتاز مداها
تقفُ الأوهام حَسْرى دونه ... لاهثاتٍ قَصَّر الأينُ خُطاها
مرَّ بالشمس فلم تشعر به ... إذ جرى ، إلاّ ظنونا واشتباها

* * *

أُمَّةُ الصحراء أقوى جَلَدا ... من مهاريها وأهدى من قَطَاها
صخرها أوحى إليها عَزْمة ... من بنى رَضْوى وتَهْلان بناها
وسُكون البيدِ فى رَهْبتها ... جرَّد الروح وبالنور كساها
ربَّ صدرٍ نافس الحلمُ به ... كلَّ صحراء بعيدٍ منتهاها
وخلال أنبت الجدْبُ بها ... عزّة اليأس فما لانتْ قَناها
أبَتِ الضيمَ فما مدت يدا ... لذوى النُّعْمى ولم تعفر جِباها
تحفظ العِرْض مَصُونا ناصعا ... وإلى الطُّرَّاقِ مبذولٌ قِراها

(١) ألقيت فى حفل افتتاح الدورة الثانية للمجمع يوم الاثنين ١٤ ذى القعدة سنة ١٣٥٣ – ١٨ فبراير سنة ١٩٣٥

أمم إن يهلك المـــالُ فإن لُـمِست أعراضُها حَلَّتْ حُبَاها
رددتْ أشعارَها شمسُ الضحى وسراجُ الليل لما أن تلاها
آية من نفحة الله ، فلو كان للنسيان كفٌّ ما محاها
روضة قد لقبوها كَلِماً تُخجل الحسنَ إذا الحسن رآها
كم حكيم أُوتِيَ الحكمَ فتًى ، وفتاة ملأ التِّبيانُ فاها
ترسل الأمثالَ تَسْرِى شُرُداً لا تبالى أينما كان سُراها

***

قف على الأطلال واذكر أمة خلّد الأطلالَ مأثورُ بكاها
بعث الله بها نورَ الهدى من قريش ، فاصطفاه واصطفاها
أشرق الصبحُ على الدنيا به بعد أن طال على الدنيا دُجاها
وجرى فى الأرض ينبوعَ هُدًى بعد أن حرَّقَها حرٌّ صَداها
قلَّد الفصحى حُليًّ قدسيةً فزهاها من حـــلاها مازهاها
وبيانا هاشميا ، لو رمى قلَلَ الأجبال لانهدَّتْ قواها
أسهمٌ من كَلِمٍ مسنونة جاهدت فى الله ، والله براها
كلما صاح بها فى طيبة مستثيرا ، ردَّدَتْها لابتاها
يزعم الشعرُ سَفَاهًا أنه لو عفت عنه القوافى لحكاها
نزل القرآن بالضاد ، فلو لم يكن فيها سواه لكفاها
حسبُها أن صوَّرتْ من آيه معجزاتٍ عظمت أن تتناهى

***

وبنو مروان ، لله هُمُ عدة الفصحى وحراسُ حماها
رب مأثورٍ لهم ودَّ له صدفُ اللؤلؤ لو كان شفاها

خُطَبٌ هزَّ لها منبرهم يقذف الهولَ دِرَاكاً مَن رماها
وقَوافٍ سلْ « أبا حزْرتها » وسل « الأخطل » كيف ابتدعاها

* * *

طفْ ببغدادَ وسَل آثارها أى سر كتمته شفتاها ؟
كل رسم قد وعى نادرة لو جرى النطق عليه لحكاها
مشت الدنيا إليها تتقى سخطَ بغدادَ وتستجدى رضاها
وأبو المأمون فى مملكة يتحدى المزن أن تعدو قُراها (١)
بلغتْ بنتُ قريش ذِروةً بنى العباس صعباً مرتقاها
بين شعر كأزاهير الرُّبا عكف الغيث عليها فسقاها
هو دَلٌّ رددته قَيْنَة وهو وجد فاض من نفس فتاها
وعلوم ترجمت واستنبطت وفصول بهر الدنيا حجاها
آبدات القول ولّت بعدهم طيّب الله ثراهم وثراها
يا بنى العباس فى مصركم عظة الكون ، وعاها من وعاها
أُطفئ النور ، ودالت دولة وطوى الدهر المنى حين طواها

* * *

شد « هُولاكو » على أرباضها شدة الذؤبان أبصرن شياها
وجرى من حوله عِقْبانه كلما أطعمها هاج ضَرَاها
لَهِفَ نفسى بنتُ عدنان هوت وأُسود الغيل قد دِيسَ شَرَاها

(١) نعتقد أن الشاعر يلمح إلى الحادثة المعروفة من أن الرشيد رأى سحابة تكاد تمطر فلم تمطر ، فقال لها : « أمطرى حيث شئت يأتنى خراجك . » يقصد أنها لن يسقط مطرها إلا فى حدود مملكته . وهو تعبير شبيه بتعبير المؤرخين المحدثين عن العاهلية البريطانية بأنها : لاتغيب عنها الشمس « صحيفة دار العلوم »

سائلوا « دجلةَ » عما راعها ، أو دعوها ، فكفاها ما دهاها
قذف الكتبَ بها طاغيةٌ هل درى ما كنزته دَفّتاها ؟
فتأمل إذ جرى آذيُّها : أترى فيه عقولا أم مياها ؟
ذهب العسف بآثار النهى . كيف تحيا أمة ضاعت نُهاها ؟
طارت الفصحى بمصر تبتغى ناعم العيش خصيبا فى ذَرَاها
بقيت فيها تلاقى شظفا فى أحايين ، وفى حين رَفَاها
ثم هبت حولها عاصفة خلط الدهرُ ضُحاها بمَسَاها
وإذا نجم بدا مؤتلق شَخَصت نحو سَناه مقلتاها
وإذا منقذ مصر ماثل وإذا مصرُ وقد شدّتْ عراها
وإذا العلم يدوّى صوته وإذا الضاد أضاءت صفحتاها
ظفرت بالعبقرىّ المرتجَى فاستجابت للعلا لما دعاها
دولة العلم به رُدّتْ إلى عرش مصرٍ بعد أن طال نَوَاها

* * *

من كإسماعيل فى آلائه ينفَدُ القول ولا يَفْنى جداها
زُهيتْ مصر جمالا وسنا بأبى الأشبال واهتزت رُباها
تخجل السحب إذا ما وازنت مرة بين نداه ونداها
غرس العلم بمصرٍ دوحةً كلما أخضلها طاب جناها
سَمتَ الآداب والدنيا به وبدت تخطر فى أزهى حِلاها
يا ابن إسماعيل ، يا ذخر النُّهى جددت مصر بكم عهد صِباها
كلُّ أشتات الندى إن فرّقتْ فإلى باب « فؤاد » ملتقاها
همة شادت بمصرٍ دولةً صانها الانصافُ ، والعلم وقاها

مسحت مصر به عين الكرى ... بعد أن طال على مصر كراها
وثبتْ وثبتها دائبة ... كلما أجهدها السعيُ زجاها
أينما أبصرت تلقى نهضة ... — تملأ العين — وإقبالاً، وجاها
وقصورا لامعات كالضحى ... ردّدَ العرفان فى مصر صداها
يا نصير العلم فى مملكة ... بلغت بالعلم غاياتِ مناها
كل يوم لك حفل للعلا ... وأياد تبهر الدنيا لُهاها
وجدت بنت قريش موئلا ... فى ذرا الملك وحصنا من عداها
لغة القرآن تزهى شرفا ... أن حامى الدين والملك حماها
حكمة المأمون عادت دارُها ... بابن إسماعيل من بعد بلاها
« مجمع الفصحى » تجلى مشرقا ... فى سماء المجد مجتازا سُهاها
هو فى مصر منار، كلما ... أرسل الأضواء فى مصر هداها
رأت « البصرة » فيه حفلها ... ورأت « بغداد » فيه منتداها
مَنْ رسولى لأعاريب اللوى؟ ... أين أعراب اللوى؟ أين لواها؟
أنّ مصرا بعثت أدابها ... وأبا الفاروق قد أحيا لغاها
وبنى اليوم عكاظا ثانيا ... تاه إعجابا به الدهر وباهى
هل حبا الآدابَ تاج مثلما ... صاحب التاج بمصر قد حباها
أنهض التأليف من كبوته ... فسقى الأحلام رشدا وغذاها
كم كتابٍ دوّنت أخبارُه ... مِنّاً كان فؤاد مبتداها
رحلَ الأعلامُ فى الغرب إلى ... سُدّة يسطع بالعلم سناها
فرأوا مملكة وثّابة ... ومليكا بهُدَى الله رعاها
دُمْ « فؤاد » القطر، تحيا أمة ... لم يكن إلاك يوما مرتجاها
وسما « الفاروقُ » نجما ساطعا ... لبنى مصر وعنوانَ علاها